10

قضية القدس ومصير أوسلو

بعد ربع قرن

فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ وقع ياسر عرفات واسحاق رابين فى البيت الأبيض إعلان مبادئ سمى بإعلان أوسلو، حيث رتبت النرويج للمفاوضات، ولكن التوقيع تم فى البيت الأبيض ووقع عليه شهودا بيل كلينتون الرئيس الأمريكى والرئيس حسنى مبارك وملك الأردن الملك حسين وتحل هذا العام الذكرى الخامسة والعشرين لهذه المناسبة .

وقد أثار إعلان أوسلو الكثير من الشقاق والجدل بين فتح التى تفخر بأنها توصلت إلى هذا الاتفاق وبين حماس التى لا تعترف بجدوى المفاوضات وتؤمن بالمقاومة وهذا وضع أدى إلى الشقاق بينهما.

الخط الاساسى لإسرائيل هو أن المشروع الصهيونى يستهدف كل فلسطين ولكن على مراحل ولذلك قام الموقف الفلسطينى والعربى عموما من الصراع أو السلام مع إسرائيل مع تباين المفاهيم فى حالتى الصراع والسلام على أوهام شملت تاريخ القضية بل التاريخ العربى كله.

وفى الذكرى الخامسة والعشرين لإعلان المبادئ، يمكن بيان الأساطير القانونية والسياسية التى أحاطت بهذا الإعلان.

الأسطورة الأولى هى أن الإعلان وهو أول اتفاق بين منظمة التحرير وإسرائيل دليلا على اعتراف إسرائيل بالفلسطينيين. والصحيح هو أن إسرائيل اعترفت فقط بأن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى أو وكيلا عن الشعب الذى لم تعترف به وتعتبره محتلا لأراضى اليهود التى تقول إسرائيل أنها تستردها. هذا الاعتراف هو تأكيد لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤ وكان يقصد به كف يد الأردن عن القدس والضفة وهذا الاعتراف جنت إسرائيل منه ثلاثة جوائز:

الأولى أنها حصلت على اعتراف المنظمة بإسرائيل دون شروط والثانية أنها تهربت من الاعتراف بحق تقرير المصير للفلسطينيين والثالثة أنها أبعدت الأردن من المعادلة ولذلك سعت إسرائيل إلى إضعاف منظمة التحرير وتوازى ذلك مع ظهور السلطة التى حلت محل المنظمة.

الأسطورة الثانية هى أن إعلان أوسلو خطوة فى سبيل التزام إسرائيل بالتسوية السياسية وأنه إعلان مبادئ وتجرى على أساسها المفاوضات والصحيح أن الإعلان كان أهم محطات المشروع الصهيونى كما قال رابين وبيريز فى مذكراتهما عن الاتفاق. واتساقا مع هذه الأسطورة اعتبر عرفات أن الإعلان هو مكافأة الانتفاضة الأولى عام ١٩٧٨ التى كادت تتبخر وأنه صار للفلسطينيين كيان ووفد مستقل وليس ضمن الوفد الأردنى فى مفاوضات مدريد ١٩٩١ وأوسلو. ثم أن عرفات جاء إلى الضفة من المنفى فصار فى المنطقة وكأنه يقول خذ وطالب، ولكن إسرائيل أتخذت عرفات رهينة حتى قضت عليه.

الأسطورة الثالثة هى أن اتفاق أوسلو هو أساس قيام السلطة. والصحيح أن الاتفاق قد أسس للسلطة وأصبح وجودها ضروريا تجاوز الاتفاق. فالسلطة الفلسطينية هى إدارة منتخبة ضرورية للأراضى الفلسطينية.فإذا كان الاتفاق هو الذي فتح الباب لتشكيل السلطة إلا أننا نري أن السلطة انفصلت عن الاتفاق وأنه تم بين إسرائيل ومنظمة التحرير والمنظمة هي التي تتفاوض مع إسرائيل، ولايرتبط مصير الاتفاق بمصير السلطة ، فالسلطة مستمرة وهي كيان إداري لسطيني ليست موضع مساومة بين إسرائيل والسلطة التي تنفرد منظمة التحرير بتقرير مصيرها.

الأسطورة الرابعة هى أن الاتفاق إدارى بينما المعاهدة مفهوم سياسى وهذا تخليط لأن الاتفاق وما يشبهه هو معاهدة بين أشخاص القانون الدولى والمنظمة كانت تتمتع بوضع قانونى متميز ومن حقها إبرام المعاهدة والاتفاقات وما شابها ولذلك فإن النعى على أن أوسلو اتفاق وليس معاهدة غير صحيح ويكفى مراجعة المادة الأولى من اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات لتصحيح هذا الفهم.

الأسطورة الخامسة أن أوسلو انقضت بانقضاء مرحلة المفاوضات النهائية وهي المرحلة الانتقالية من ١٩٩٤ حتي ١٩٩٩ أى أن تدور المفاوضات على أساس إعلان أوسلو حول خمسة موضوعات من بينها القدس أى أن أوسلو تفترض حل الدولتين . والصحيح أن أوسلو انتهت عمليا بتخلى إسرائيل عن حل الدولتين بقانون الدولة اليهودية عام ٢٠١٨، وكذلك باعتراف واشنطن راعية أوسلو بأن القدس كلها عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأمريكية إليها. والحق أن أوسلو انتهت منذ خطاب الضمانات الأمريكى الذى سلمه بوش إلى شارون يوم ١٤ أبريل ٢٠٠٤ فى آخر زيارة لشارون لواشنطن وهذا الخطاب هو تكريس لموقف الكونجرس ١٩٩٥، ٢٠٠٢ من القدس وأسس التعامل مع القضية حيث اعترف بأن ما تقرره إسرائيل هو التسوية فقلب الموقف الأمريكى رأساً على عقب ولذلك فإن قرار الجانب الفلسطينى بالترويج بإلغاء أوسلو لا يقوم على أساس قانونى خاصة بعد أن اعتبرت إسرائيل أن مجرد إجراء المفاوضات مع عباس يجب أن يقابله تنازلات فلسطينية.

الأسطورة السادسة أن إسرائيل ملتزمة بأوسلو والصحيح أن إسرائيل لم تذكر أوسلو منذ إبرامها فى أى سياق وسلوكها يناقض أوسلو فى الواقع، وأنها أبرمتها لكي تخفي مشروعها الحقيقي وتكون محطة مدروسة لمشروعها بعد أن ضيقت الخناق علي عرفات ثم أن الجانب الفلسطيني ترجم أوسلو الي العربية بشكل لايطابق النصين العبري والانجليزي لكي يسوقها داخليا وعربيا(كتابنا الاطار القانوني لاعلان المباديء في أوسلو- الأهرام الاقتصادي اول ديسمبر ١٩٩٣).

الأسطورة السابعة أن أوسلو يجب إلغاؤها من جانب السلطة حتى تتم المصالحة مع حماس. والصحيح أن التنسيق الأمنى بين السلطة وإسرائيل ضد المقاومة الحالي ليس أساسه أوسلو وإنما شعور السلطة بأن عدوها الحقيقى هو حماس وليس إسرائيل، وإلا لماذا يفرض عباس عقوبات على غزة ولم يطالب يوما برفع الحظر عن غزة مع مصر وإسرائيل. كان يقصد بالتنسيق الأمنى فى أوسلو بين إسرائيل والسلطة هو التركيز على ابعاد المقاومة من المسار السلمى وصارت السلطة تحل محل إسرائيل فى قمع المقاومة وبذلك تحقق هدفين: الأول القرب من إسرائيل تحت ستار الالتزام بأوسلو والثانى إضعاف حماس والمقاومة مما يقلل من شعبيتها فى الانتخابات.

الأسطورة الثامنة أن أوسلو تمنع إحياء منظمة التحرير. الصحيح أن المفاوضات مع إسرائيل خاصة الوضع النهائى يجب أن تقوم بها المنظمة وليس السلطة، ولكن إحياء المنظمة يدخل فيها الفصائل مما ينزع سلطة اتخاذ القرار من رئيس السلطة رغم أنه هو فى نفس الوقت رئيس للمنظمة.

الأسطورة التاسعة هى أن اعتراف المنظمة بإسرائيل لايمكن الرجوع فيه والصحيح أن هذا الاعتراف كان هدفه إظهار حسن النية فى التسوية من الجانب الفلسطينى وعربونا لتشجيع إسرائيل على المضى فى طريق التسوية، ولذلك يسقط هذا الاعتراف بمجرد تخلى إسرائيل عن التسوية. فهل سقوط الاعتراف يكفى أم لابد من سحبه؟

لا فرق بين السقوط والسحب سوى أن سحب الاعتراف عمل سياسى ونفسى وإعلامى، بل إن إسرائيل تسعى لارغام عباس على الاعتراف بالدولة اليهودية وهذا مستوى مختلف عن الاعتراف السابق بإسرائيل.

الأسطورة العاشرة أوسلو والدولة الفلسطينية:

كان الاندفاع الفلسطيني نحو الأمم المتحدة للاعتراف بفلسطين كدولة كاملة العناصر ردا علي تقاعس إسرائيل عن المضي بأوسلوالتي كان يفترض أن تؤدي إلي إعلان الدولة بالاتفاق الناجم عن المفاوضات. ولكن الجمعية العامة اعترت مرتين بفلسطين كدولة دون أن تحدد حدودها مثل إسراءيل هل تصلح حدود قرار التقسيم أم الحدود المتفق عليها بالمفاوضات؟ لاتعترف إسرائيل بأي منهما لأنها تطمع في كل فلسطين.

الأسطورة الحادية عشرة هى أن الاعتراف الفلسطينى بإسرائيل تحصيل حاصل. والصحيح أن الاعتراف استغلته إسرائيل وكان أكبر أخطاء الجانب الفلسطيني وهي خطوة ترتبت علي كامب دافيد التي أطلقت فيها يد إسرائيل والاعتراف المرتبط بأوسلو كان وظيفيامحفزا ولايجوز فصله عن سياقه .ومعلوم أن مسألة الاعتراف بالغة الحساسية لإسرائيل وكان يفترض أن يبرم اتفاق يحدد الوضع النهائي بالمفاوضات ويتبعه الاعتراف النهائي بإسرائيل ولكن إسرائيل كانت تضمر عكس ذلك تماما.